هوامش

يطرح معرض «بعد نهاية التاريخ» تصوراً حول الطبقة البريطانية العاملة، والتحولات التي عاشتها بين عامي 1989 و2024، إثر ما طرأ من تغيّرات سياسية واقتصادية واجتماعية في المملكة المتحدة

سيرينا براون (موقع المعرض)

بعد نهاية التاريخ

الطبقة البريطانية العاملة في صور

ريم ياسر

في العام نفسه الذي سقط فيه جدار برلين (1989)، كتب المنظر الاقتصادي، فرانسيس فوكوياما، مقالته الشهيرة «نهاية التاريخ»، متنبّئاً فيها بسيادة النموذج الليبرالي. في هذه المقالة التي تحولت فيما بعد إلى كتاب، زعم فوكوياما أن النظام الليبرالي هو وحده القادر على تحقيق السعادة للبشرية والاستقرار العالمي. اعتبر الرجل أن انتصار النظام الليبرالي يمثل نهاية التطور الاجتماعي والثقافي والأيديولوجي للبشرية، وبداية لعصر جديد من الاستقرار الجيوسياسي. نحن اليوم نعيش بالفعل بعد نهاية التاريخ الذي حدّده فوكوياما، وندرك أن نبوءته هذه لم تتحقّق، فالعالم لا يزال مسكوناً بأسباب الصراع، وتحكمه الانقسامات والحروب. المعرض الذي يستضيفه حالياً غاليري فوكال بوينت (Focal Point Gallery) في بريطانيا (في مدينة ساوثند أون سي) حتى 14 من سبتمبر/أيلول المُقبل، يطرح تصوراً مغايراً لما ذهب إليه فوكوياما. فالتاريخ، كما يرى منظمو المعرض، لا يتوقف أو يُحاصر في أيديولوجية معينة، بل هو مُتجدد ومُتغير طالما استمرت الحياة. يُنظم المعرض تحت عنوان «بعد نهاية التاريخ: الطبقة العاملة البريطانية بين عامي 1989 و2024». يشير عنوان المعرض الذي يُشرف عليه الكاتب والمصور البريطاني جوني بيتس إلى مقولة فوكوياما بشيء من السخرية، مؤكداً أن التاريخ لم ينته أو يتوقف، لكنه تغير بالطبع كما تغيرت ثقافة الناس واهتماماتهم. «بعد نهاية التاريخ» هو معرض متجول يجوب مساحات العرض والمتاحف وغيرها من الأماكن الممولة من القطاع العام في المملكة المتحدة، وهذه هي المحطة الثانية له. ترصد الأعمال التي يضمها المعرض التغيرات التي طرأت على ثقافة الطبقة العاملة في المملكة المتحدة خلال هذه الفترة الزمنية التي تقارب أربعة عقود، منذ سقوط جدار برلين وحتى اليوم. هذه التغيرات التي يشير إليها بيان المعرض تتجسد في الوجوه المختلفة للحياة، من الثقافة والملبس إلى أساليب الاحتفال والتفاعل مع الآخرين. تقدم الأعمال تصورات مختلفة وغير نمطية عن حياة الطبقة العاملة، في تحد واضح لهيمنة السرديات التاريخية والنسق الهرمي المتعارف عليه للطبقات الاجتماعية. لا يتعامل «بعد نهاية التاريخ» مع أفراد هذه الطبقة، كما يقول منسق العرض، جوني بيتس، كشخصيات رمزية، بل ينغمس في حياتهم الشخصية، سعياً إلى الوصول إلى صورة أوضح للعالم، كما يتراءى لهم. يضيف بيتس: «لسنا هنا بصدد رصد لحياة هؤلاء العمال، أو توثيق معاناتهم، كما قد يظن بعضهم، فواقع حياتهم أكثر تعقيداً من ذلك بكثير».

يبتعد العرض عن ممارسات التصوير الوثائقي لحياة العمال في الستينيات والسبعينيات، كما يبتعد أيضاً عن الصورة النمطية للطبقة العاملة البريطانية التي غالباً ما كان يجري تصويرها كمجموعة من الرجال البيض المُرهقين والملطخين بالسُّخام. ربما تُشكل هذه الصور النمطية توقعات الناس حول الشكل الذي قد يبدو عليه معرض للتصوير الفوتوغرافي عن الطبقة العاملة، وهو ما سعى منسق المعرض إلى تحطيمه تماماً. لن ترى هنا عمالاً داخل المصانع واحتجاجات وأشياء من هذا القبيل، إذ تستقبل الزائر ثلاث صور بالحجم الطبيعي للملاكم اليمني البريطاني نسيم حميد، الذي سطع نجمه في عالم الملاكمة في تسعينيات القرن الماضي، وصُنّف واحداً من أهم ملاكمي بريطانيا في وزن الريشة. الصورة كان قد التقطها الفوتوغرافي تريفور سميث، الذي تعامل مع صورة حميد بوصفها رمزاً لأحلام وتطلعات أبناء الطبقة العاملة المُهاجرة في التسعينيات. أغلب الصور المُشاركة هنا لمصورين من أبناء الطبقة العاملة يوثقون فيها حياتهم اليومية. ستطالعنا مشاهد متنوعة من أحياء المهاجرين للمصور رينيه ماتيتش، وصور أخرى للمجتمع الهندوسي في بريطانيا للمصور كافي بوجارا، إلى جانب أعمال المصور جيه إيه موتردام التي سجل خلالها يومياته أثناء عمله مقدم رعاية صحية. يستكشف المعرض تحديات وجمال حياة الطبقة العاملة المعاصرة في بريطانيا بكل تنوعها وتناقضاتها.

يضم المعرض مجموعة متنوعة من أعمال مصورين بريطانيين بارزين، من أمثال هانا ستاركي (1971)، وريتشارد بيلينغهام (1970)، إلى جانب أسماء أخرى أقل شهرة من جيل الألفية. سنشاهد هنا صوراً لراقصين في النوادي الليلية، ومشاهد لاحتفالات عائلية، أو صوراً للعاملين داخل المتاجر والفنادق الصغيرة. لا يهتم المعرض، كما يقول منسقه جوني بيتس، بما يتوقع الناس أن تكون عليه الطبقة العاملة، بل بما يحدث بالفعل. لقد حرص منسق العرض، كما يقول، على إظهار التنوع الثقافي لهؤلاء العمال، وأساليبهم المختلفة في التجاوب مع المتغيرات الاجتماعية، والتأكيد أيضاً على التداخلات بين الطبقات العليا والمتوسطة والعاملة.

يستكشف معرض «بعد نهاية التاريخ» الحياة من خلال عدسات فناني الطبقة العاملة، الذين لم يوجهوا نظرهم إلى مجتمعاتهم فحسب، بل وجهوا نظرهم أيضاً نحو العالم الأوسع. والنتيجة هي مجموعة متنوعة من الأعمال الفوتوغرافية التي لا تحتفل فقط بحياة الطبقة العاملة المعاصرة وتدافع عن تنوعها وجمالها، بل تتحدى أيضاً الصور النمطية حولها.

باختصار

تتجسد التغيرات التي يشير إليها المعرض في الوجوه المختلفة للحياة، من الثقافة والملبس إلى أساليب الاحتفال والتفاعل مع الآخرين

■■■

لا يتعامل «بعد نهاية التاريخ» مع أفراد هذه الطبقة كشخصيات رمزية، بل ينغمس في حياتهم الشخصية

■■■

يبتعد العرض عن ممارسات التصوير الوثائقي لحياة العمال في الستينيات والسبعينيات، كما يبتعد أيضاً عن الصورة النمطية للطبقة العاملة البريطانية

وأخيراً

تلك الأيام

رشا عمران

رغم أنّ عائلتي عاشت في دمشق منذ زمن طويل، لكنّني ابنة تلك القرية الجبلية التي كنّا نذهب إليها في العطلات المدرسية كلّها، عطلة نصف السنة والعطلة الصيفية وعطلات الأعياد. لم يكن أصدقاء طفولتي الحقيقيون في دمشق، بل في الملاجة، قريتي، هم أبناء عمومتي وأخوالي من الدرجة القريبة والبعيدة، وفي قريتي، كمعظم الريف السوري، لا يوجد هذا الفصل بين الصبيان والبنات، كنّا معاً دائماً، نقضي النهار من أوّله حتّى أوّل الليل، وربّما حتّى منتصفه، إذ كنّا ننام جميعاً في الغرفة الكبيرة التي تجمعنا. كانت بيوت القرية وقتها غرفاً طينية كبيرة منفصلة مسقوفة بالخشب، ومفروشة بمدّات أرضية تصلح للجلوس وللنوم معاً. كانت في بعض الغرف أسرّة حديد عالية، شرط النوم فيها هو الاستحمام بعد يوم طويل من اللعب، وارتداء ملابسَ نومٍ نظيفةٍ، والخلود مُبكّراً إلى النوم. ورغم إغراء النوم على السرير بعد الطاقة الهائلة المبذولة في اللعب، إلّا أنّ إغواء الألعاب الداخلية المسائية كان أقوى، كلعبة الورق (الكوتشينة) أو لعبة المنقلة، وهي بين طاولة الزهر والضاما، أو لعبة الحروفية، وهي لعبة تستفزّ الذاكرة فيقول أحدنا بيتاً من الشعر أو أغنيةً وعلى الآخرين قول بيت آخر يبدأ بالحرف الذي انتهى فيه بيت الشعر السابق، أو حتّى التجمّع ليلاً لقراءة واحدةٍ من قصص حكايات ألف ليلة وليلة المثيرة أو ما يشبهها من روايات قرأها أحدنا واكتشف فيها فصلاً يصلح لخيالات أوائل المراهقة عن الجسد وغواياته. لم يكن التيّار الكهربائي قد وصل إلى قريتنا بعد. حين كنّا نجتمع مساءً كنّا نُوقد الفتيلَ في القنديل الكازي الصغير، أو كنّا نُشعل شموعاً بدائية كان أهل قريتي يشترونها من بائع جوّال نطلق عليه اسم (الشيني)، وكانت العملة التي يأخذها هي البيض الطازج ثمن بضاعته، فكانت كلّ ما يمكن أن يحتاجه أهل القرية في ذلك الوقت ممّا لم يكن متوفّراً لديهم. احترنا لاحقاً من أين أتى هذا الاسم، هل هو نسبة إلى قرية (شين) الواقعة بين طرطوس وحمص، أم نسبة إلى الصين التي كانت بضاعة البائع الجوال كلها منها؟... لم نشعر يوماً بأنّنا نحتاج للكهرباء، أقصد أنا وأخي، القادمَين من العاصمة، حيث لا تحتاج سوى ضغط زرّ صغير ليشعّ النور في الغرفة. بل في الحقيقة كنّا سعداءَ بهذا العتم الجميل، الذي يُبعد عنّا سطوة الكبار المجتمعين في بيوت أخرى يستمعون إلى أغانٍ تصدر من جهاز راديو صغير يعمل بالبطارية، أو يحيون واحدةً من سهراتهم الدائمة، حيث يغنّون أغانيَ كتبوها ولحّنوها بأنفسهم، أصبحت لاحقاً من التراث الجميل لقريتنا الصغيرة، التي خرج منها كتّاب وفنّانون ومُغنّون سوريون عديدون.

أفكر اليوم بذلك كلّه، بتلك المتعة كلّها، القائمة على بذل المجهود لابتكار ما يسلّينا ويدهشنا ويجعلنا سعداءَ ومنطلقين ونشيطين، لم يكن هنالك شيء يمكنه أن يشغلنا عن التجمّع والتشارك في اختراع أنواعٍ مدهشةٍ من الألعاب، كلّ شيء كان مشتركاً ومبنياً على التواصل النفسي والمادّي لأطفال أو مراهقين يبحثون عن السعادة والمتعة، فيتشاركون ابتكارها واكتشافها من دون أن يدركوا كم سيكون لذلك أثره العميق لاحقاً. أفكّر بذلك كلّه وأنا أرى العزلة التي يعيشها الأطفال في وقتنا الحالي، فهم يعيشون مع شاشات صغيرة وذكاء صناعي يقدّم لهم تسليةً باهتةً، تزيد في عزلتهم، وفي احتمال دخولهم موجاتَ اكتئابٍ واضطراباتٍ نفسية لاحقاً، وتؤهّلهم لدخول دائرة الكسل والسمنة، وفقدان مهارات التواصل الاجتماعي، إضافة إلى أنّها تنمّي لديهم نوازعَ عنفيةً أو تُؤثّر في خياراتهم الجنسية، فمهما كنّا غير مؤمنين بنظريات المؤامرة، إلّا أنّه لا يمكننا تجاهل أنّ لموّلي ومُخترعي الذكاء الصناعي أجندات أو ميولاً سوف يقومون بترويجها لمستهلكي منتجهم. غيّرت الحداثة التقنية المهولة في منظومة العقل البشري وفي الكيمياء الخاصّة به، عوّدته الكسل والتلقّي والاستهلاك، بدل الابتكار والنشاط، وبذل الجهد للحصول على المتعة العقلية أو النفسية. سابقاً كانوا يدفعون للشيني بيضاً ثمن بضاعته، البشر اليوم يدفعون سلامهم النفسي في مقابل بضاعة شينيي العصر الحديث.

> غيّرت الحداثةُ التقنية المهولة في منظومة العقل البشري وفي الكيمياء الخاصّة به، عوّدته الكسل والتلقّي والاستهلاك

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**